

ذلك اضطراباً ، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا في حالة حرب فعلية في البر والبحر منذ شهر مارس من عام ١٨٣٩ ، كما أنباء القنصل الاغريقي العام بالقاهرة حكومته في ٢٦ من ذلك الشهر^(١) . ولطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائي ؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العلنية . وقد كتب في ذلك القنصل اليوناني العام في الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ ١٨ يونية يقول :

« تدل الأنباء الواردة من المنطقة التي يمسك فيها الجيشان في الوقت الحاضر على أن جيوش السلطان تواصل الرحل ، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم . وقد تقدم (سليمان باشا والي مصر) في جيش مكون من نحو ثمانمائة

فارس ، حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة ، وإن كانت قلعها لا تزال في أيدي المصريين . ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيش التركية كان مع هذه القوة ، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب . ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصري وامتناعه عن القتال إطاعة للأوامر الصادرة من الوالي إلى إبراهيم باشا ، بعد أن هدده الدول الأوربية وأنذرتة ألا يكون الباسىء بفتح باب المدوان ، فاعتنموا هذه السانحة وثقلوا في البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة ، اللهم إلا مناوشة

بين الفرسان السالتي الذكر وكتيبة صغيرة من البدو »^(٢) .

وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه في رسالة سابقة بث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية . وقبل أن تنقل إلى القارىء شيئاً من هذه الرسالة تقول إن ميخائيل توسزا Michael Tossizza الذى بث بهذه المعلومات إلى أثينا ، لم



إبراهيم بك

موقفه نصيبين

في أواخر هذا الشهر يخرج الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنا فادن الابتدائية ترجمة عربية لكتاب « إبراهيم » تأليف القاضي بيركرتيس بصريح خاص من شركة روتلج الانجليزية ، والكتاب مثال من الدقة والأمانة في الترجمة . وإليك فصلاً من فصوله ننشره بمناسبة تنويع الفاروق أعز الله ملكه .

لما علم محمد على بأن الجيش تركى يستعد للزحف على بلاد الشام ويحرض أهلها على الثورة ، ووزير حريته أن يلحق إبراهيم رغم معارضة قناصل الدول وأسرع وزير الحرية إلى مقر القيادة العليا للجيش إبراهيم . وكان الطريق أمامه طويلاً ، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعاً كما يسير الرسول . ولذلك سبقه ببعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أمية . ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر ، ولكن في مقدورنا أن نتكهن بمحتاها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه

سنة ١٨٣٩ الحق المطلق في أن يفعل كل ما يراه صالحاً ، فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تليه عليه الظروف^(٣) . ولما ترك محمد على لإبراهيم أن يتصرف في الأمر بحكمته وحسن تدبيره ، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى

(*) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جبك والإسكندرية وهي غير نصيبين التي بالجزيرة ، ويسمى الانفرج والترك نرب (العرب)
(١) بوليتس في كتابه السالف الذكر ص ٦٣
(٢) المصدر عينه ص ٨
(٣) المصدر عينه ص ٦٣

الثلاث محمداً علياً أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه وبين الباب العالي تغيير ما ، وأنه إذا أقدم على عمل أيا كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه ؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله :

« إنني لا أرغب في الحرب ، ولن أقدم على عمل عدائي ، ولكنني راغب في الاستقلال ، ولن أتخلى عن هذه الغاية »^(١) على أن هذا التحذير كان له أثره في نفس محمد علي ؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوأ العواقب ، أن يرحل إلى الجنوب . وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت في السودان . ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه ، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك ، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل . وزيادة على ذلك فإن غيابه يهيء الظروف للسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت ممكن . لكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت في عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة التي ظلت تعارض محمداً علياً بعد رجوعه في ١٥ مارس سنة ١٨٣٩

ولا شك في أن إبراهيم كان يعرف بكل هذه الحقائق ويعرف أيضاً كيف يتعاطى معها ؛ لأن أباه كان دائماً الانصال به لا يقطع عنه أخباره ؛ وكانت معرفته بها وتقديره خطر الموقف الذي كان يواجهه سبباً في أنه لم يحرك ساكناً حينما استثار الأتراك غيظه ؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوروبا السياسية ؛ وعرف الباب العالي ذلك فوقف من المصريين هذا الموقف الغضب . وكان قون ملكه وقون ملباخ Von Mulbach وغيرها من الضباط البروسيين لا يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين ، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالة في الاطمئنان إلى مقدراتهم ، فيفرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم . وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى في نفس القائد التركي العام ، فلم يشك قط في الظفر بأعدائه ، لأن له جيشاً جراراً ، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام ، وهيئة طيبة من الضباط نوانها مساعدوه الألمان .

يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين ، ولا من رجال البحرية ، بل كان تاجراً استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان ، وكسب صداقة محمد علي ، واحتفظ بهذه الصداقة . فلما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها في القطر المصري في عام ١٨٣٣ ، عهدت بأمور القنصلية إليه . ولم يكن يرسل في أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته ، كما أنه لم يبدأ الاشتغال بالمسائل السياسية إلا في سنة ١٨٣٨^(١) . ولم يكسب قط في حياته ذلك الأسلوب الخاص الذي تكتب به الراسم والوفائق السياسية ، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح . وبتناز ما كتبه توسزا بجميزة أخرى غاية في الأهمية ، وهي ناشئة من الصداقة الوثيقة التي كانت بينه وبين محمد علي . وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته في ٢٣ يولييه سنة ١٨٣٨ يقول :

« لقد أبلغ المشر كابل وكيل إنجلترا السياسي الوالي بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال ، وتصّر على أن يبقى كما هو ؛ وإلا فإن الدول الأربع : إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا مستعمل مجتمعة لمنعه من نيل استقلاله ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة . وهذه الدول متفقة على ذلك ، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطاني والفرنسي في البحر الأبيض المتوسط ، وأن ترسل الجنود النمساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك . وبلوح أن سحر الوالي سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة ، فستلجته الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى ؛ ومهما كانت العاقبة فيسكون من أكبر دواعي الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى »^(٢)

وكتب توسزا رسالة أخرى في ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٨ يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة . ولهذا الأمر أهميته ، لأننا عرفنا من قبل أن هلمث قون ملكه كان وقتئذ مع الجيش النماني الذي كان يعمل بكل ما في وسعه ليستثير غيظ إبراهيم . وليس ينبغي علينا أن نملكه كان في ذلك الوقت رجلاً لا خطر له ، ولا يكاد يعرفه أحد ؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذي تم فيما بعد ، ومضاعفاً للخطر الذي كان يتعرض له جيش إبراهيم . وقد أبلغ قناصل هذه الدول

(١) المصدر عينه من ٣ من المذمة .

(٢) المصدر عينه من ٤٠

تكن أعلنت رسمياً بين الدولتين . وكان تاريخ الخطاب ٨ يونيه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

«إن التعليمات التي أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين في الاسكندرية قد أقنعتني بأنهم غير راضيات عن الحرب ؛ وإني لأعرف أيضاً أن سمو مولاي العظم غير راض عنها ، ولكن على الرغم من هذا .

(١) فإن سليمان باشا المرعشي أرسل فصيلة من جنوده هاجت جيوشنا في بولانق .

(٢) وأرسلتم فرقة إلى باباس^(١) لتحريض أهلها على الانتفاض علينا

(٣) وبغتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ^(٢) للغرض نفسه .

(٤) وغزوتهم أرضنا وهاجمت عرب المهنادى التابعين لنا .

(٥) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عينتاب ، ودخل سليمان

باشا المرعشي هذه المدينة ولا يزال باقياً فيها إلى الآن . وبالأمر

هاجت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتك صفوفنا وأمرتم

مدفيعتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا المهنادى في مخايفنا

الأممية » .

وبعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال :

« ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله ، لأنني

كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن هذه الأعمال العدائية تنضبط

السلطان مولانا العظم . فإذا كنتم سعادتك تمزقون سكوتي عنها

إلى الخوف فأنكم مخطئون في ظنكم ، إذ ليس لسكوتي الاسبب

واحد هو حرصى على احترام رغبات سمو والذى وسيدى العظم .

وإذا كنتم سعادتك قد تلقستم الأمر باستئناف القتال ، فما بالكم

تهيجون هذا النهج وتندسون الدسائس . هلموا إلى ميدان القتال

ولكن هلموا إليه بصراحة ، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب

أن تخاض . وإلا إخالكم قد نسيتم ماحدث منذ بضع سنين ،

وستلقون رجالاً لا يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم ؛ أما الدسائس

فاننا لا نطبق احتمالها إلى الأبد . فهل أحظي منكم بجواب صريح ؟

فان فعلتم فسينقل ردكم إلى إذا رغبتم حامل هذا الخطاب

الأمير ألاى محمود بك^(٣) . »

(يتبع)

محمد جبراه

(١) ميناء صغير في خليج الاسكندرية (المغرب)

(٢) جبل الأكراد (المغرب)

(٣) كدلين وبرو (ج ١ ص ١٩٣)

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه

٢٣ إبريل بهجوم مثله . ولما سقطت عينتاب في يده زاد

طمعانه ، ولم يساوره قلق ما حتى جرى إليه بأحد الأسرى الذين

قموا في يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر . وهذا

لأسير هو فرجاني شيخ عرب المهنادى . وكان رجلاً سواء الله

عنده ووجهه من الكبرياء بقدر ما ووجهه من قوة الجسم . وأخذ

لقائد العام يسأل أسيره ، أهله يعرف منه مايفيده في موقفه ، لكن

لرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله : « عن أى شيء تسألني ؟

ونك رأسى فليس ينجيه منك لسانى ، بل ربما أوقعنى في الهلاك

كان منطوق سبياً في إراقة دمي » . فلجابه حافظ بقوله : « لن أس

نمرة من لحيتك إذا صدقتنى القول » . فقال له الأسير : « أقسم

لقرآن أنى سأبرح هذا المكان حياً سليماً من الأذى ، أخبرك بما تريد

فلما أقسم ضحك فرجاني ملء شذقيه وقال !

« أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيي في معسكرك

بمعسكر إبراهيم ؟ أتريد أن تعرف ما سيقع في المستقبل ؟ ألا هل

ستطيع أحد أن يتنبأ بما في عالم الغيب ؟ لكنك إذ أصررت

على معرفة الحقيقة فاني مبلتلك إياها : إن معسكر إبراهيم معسكر

جنود ، أما معسكركم فمعسكر حجاج » .

فقال له القائد التركي غاضباً : « وما ذا تقصد بهذا القول ؟ »

برد عليه بقوله : « رأيت في معسكر إبراهيم أكداً من

لأسلحة وإلى جوارها كتائب من الجند المشاة مدججين بالسلاح ؛

رأيت المدافع وإلى جانبها رجال المدفعية ؛ ورأيت الاصطبلات

يقربها الفرسان ؛ ورأيت كل إنسان في موضعه متأهباً لأداء

واجبه ؛ ولم أر شيئاً من ذلك في معسكركم ، بل رأيت فيه يهوداً

وتجاراً وأتمة ؛ رأيت فيه رجلاً يقرضون المال ، ورجلاً يبيعون ،

وآخرين يصلون ، ولذلك قلت : إن معسكركم أشبه شيء بمعسكر

الحجاج . وتسألني لمن سيكون النصر ؟ فأقول إن هذا ما لا أعرفه ،

لأن علمه عند الله ، وستعلم بناءً بعد حين »^(١)

إن للأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام . ومع أن حافظاً

قد تألم وكاد يصعق مما قاله العربى الصريح ، فقد فك أسره وخلي

سبيله ، وقبل أن يعود إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من

إبراهيم ؛ ولم يكن هذا الرسول يحمل راية الهدنة لأن الحرب لم

(١) كدلين وبرو في كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ١٨٨ .